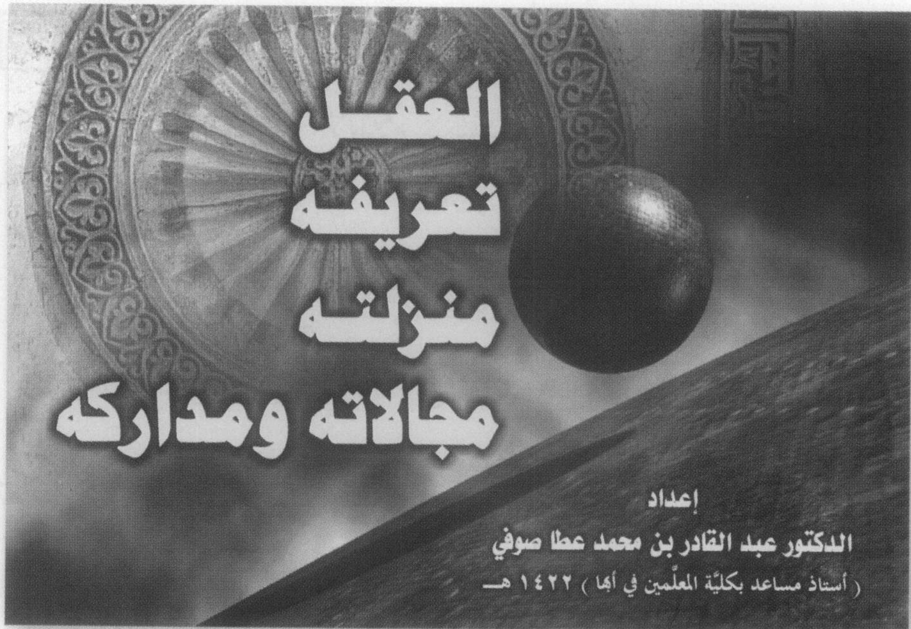

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أوجدنا من العدم، وجعل أمّتنا خيرَ الأمم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له، ندب أصحابَ العقول إلى إعمال عقولهم، وحثّهم على التفكُر في عظيم مخلوقاته التي تُحيط بهم.

والصلاة والسّلام على نبيّنا محمّدٍ أفضل من عقل وفهِم، وعلى آلِه وأصحابه، والتابعين لهم.

وبعد:

فإنّ ديننا الإسلاميّ لم يحجر على العقول، أو يُهملها، بل رفع من شأنها، وأعلى من قدرها، وجعلها مناط التّكليف، وفرّق بين الذين يعقلون، والذين لا يعقلون.

والعقلُ له منزلةٌ في الإسلام لا تُنكر، ومجالاته فيه كثيرةٌ، وجديرة بأن تُذكر.

وقبل الحديث عن منزلته، والخوض في مجالاته ومداركه، لا بُدَّ من وقفةٍ أُبيِّنُ بها المراد به في اللغة والاصطلاح.

وهذا يستلزم تقسيم البحث إلى ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: تعريف العقل لغةً واصطلاحاً:

أولاً: العقل في اللغة:

العقل في اللغة يُطلق على المنعِ والحَبْسِ.

يُقال: اعْتُقِلَ الرَّجلُ، إذا حُبِسَ.

ومرض فلانٌ، فاعتُقِلَ لِسانُه، إذا امتنعَ عن الكلام، فلم يَقْدِر عليه[١].

ومنه قول ذي الرُّمَّة[٢]:

ومُعْتَقَلُ اللِّسانِ بغيرِ خَبْلٍ   يَمِيدُ كأنَّهُ رجُلٌ أميمُ[٣]

ويُقال: أعْطِنِي عَقُولاً أشْرَبُهُ، إذا طَلَبَ دواءً يُمْسِكُ بَطْنَهُ[٤].

ويُقال كذلك: عَقَلْتُ البعيرَ أَعْقِلُهُ عَقْلاً، إذا منعْته من الحركة، وذلك بأن تَثْنِي وَظِيفَه مع ذراعه، فتشدَّهما جميعاً في وسط الذِّراع[٥].

---

(١) الزمخشريّ، ١٤٠٩هـ، ص ٤٣٠.

(٢) هو غَيْلانُ بن عُقبة، أبو الحارث العدويّ. من فحول الطبقة الثانية. وأكثر شعره تشبيبٌ وبُكاءٌ على الأطلال. مات سنة ١١٧هـ. [الزركلي، ١٩٨٤م، (١٢٤/٥)].

(٣) الحربي، ١٤٠٥هـ، (١٢٣٢/٣).

(٤) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ١٤٠٧هـ، ص ١٣٣٦.

(٥) الجوهري، ١٤٠٢هـ، (١٧٧١/٥).

ومن هذا الباب قوله ﷺ لصاحب الناقة: **«اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»**[1].

وذلك الحبل الذي تُعقل به الناقة يُقال له العِقَالُ، والجمع عُقُلٌ[2].

ومنه قوله ﷺ عن القرآن الكريم: **«لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّياً من الإِبِلِ في عُقُلِهَا»**[3].

وإنَّما يُعقل البعير لحبسِه، ومنعه من الهرب، والشرودِ.

واعْتَقَلْتُ الشاةَ، إذا وضعتَ رجلها بين فخذيك، أو ساقيك، لتحلُبَها[4]؛ فأنت بفعلك هذا تمنعها من الحركة.

وعَقَلَ الوَعِلُ، إذا امتنع في الجبل العالي، يَعْقِلُ عُقُولاً. والمكان الممتنعُ فيه يُسمَّى «المَعْقِل»[5]. وبه سُمِّيَ الوَعِلُ عاقِلاً.

يقول النابغة الذُّبيانيّ[6]:

وقد خِفْتُ حتَّى ما تَزيدُ مَخافَتِي ... على وَعِلٍ في ذِي المَطَارَةِ عاقِلِ[7]

وتُسمَّى الديةُ عَقْلاً ومَعْقُلَةً؛ فيُقال: القومُ على مَعَاقِلِهِمُ الأولى؛ أي على ما كانوا يَتَعَاقَلُونَ في الجاهليَّة، كذا يتعاقلون في الإسلام[8].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه، ك القيامة، باب رقم ٦٠، من حديث أنس ﷺ، وقال: «هذا حديثٌ غريبٌ من حديث أنس، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقد صحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي»، ١٤٠٨هـ، (٢/٣٠٩)، ح٢٠٤٤.

(٢) الجوهري، مصدر سابق.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ. [البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده. ومسلم، صلاة المسافرين، باب فضائل القرآن].

(٤) الزمخشريّ، مصدر سابق.

(٥) الحربي، مصدر سابق.

(٦) هو زياد بن معاوية بن ضباب، أبو أمامة الذبياني. شاعرٌ جاهليّ من الطبقة الأولى من أهل الحجاز. له شعرٌ كثيرٌ، وعُمِّرَ طويلاً. [الزركلي، مرجع سابق، (٣/٥٤ ـ ٥٥)].

(٧) النابغة: ديوانه، ١٤٠٥هـ، ص ١٢٩.

(٨) الجوهري، مصدر سابق، (٥/١٧٧٠).

وقد جاء في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ كتب بين المهاجرين من قريش، والأنصارِ، أنّهم على رَباعَتِهِم[١]؛ يَتَعاقَلُونَ مَعاقِلَهُمُ الأُولَى[٢].

وعَقَلْتُ عن فُلانٍ؛ أي غَرِمْتُ عنه جنايَته إذا لَزِمَتْهُ دِيةٌ، فأديتها عنه[٣].

وعاقِلَةُ الرجل: عَصَبَتُهُ؛ وهم القرابة من قِبَل الأب، الذين يُعطون دِيَةَ من قتله خطأً[٤].

ويشهد لهذا المعنى، ما جاء في حديث جابر بن عبدالله الأنصاريّ رضي الله عنهما: «أنَّ امْرَأَتَيْنِ قَتَلَتْ إحْدَاهُمَا الأُخْرَى، فجَعَلَ رسولُ الله ﷺ دِيَةَ المَقْتُولَةِ على عَاقِلَةِ القَاتِلَةِ»[٥].

وإنّما أطلقوا على الدية، وأدائها عَقْلاً؛ لأنَّ الإبل كانت تُعقل ـ تُحبَس ـ بفناء وليِّ المقتول[٦].

والعَقِيلَةُ هي كريمةُ الحيّ، وسُمِّيَت بذلك لِحَبْسِهَا نَفْسَهَا في بيتها[٧].

يقول امرؤ القيس[٨]:

عَقِيلَةُ أَتْرابٍ لها لا دميمةٌ ولا ذاتُ خَلْقٍ إن تَأَمَّلْتَ جَأْنَبِ[٩]

---

(١) أي أمرهم الذي كانوا عليه. [الفيروزآبادي، مصدر سابق، ص ٩٢٨ ـ ٩٢٩].

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/٢٧١) من حديث ابن عباس، و(٢/٢٠٤) من ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) الزمخشريّ، مصدر سابق، ص ٤٣١.

(٤) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، ص ١٣٣٧.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الديات، باب دية الجنين. وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود»، ١٤٠٩هـ، (٣/٨٦٥)، ح٣٨٢٦.

(٦) الجوهري، مصدر سابق، (٥/١٧٦٩ ـ ١٧٧٠).

(٧) الحربي، مصدر سابق، (٣/١٢٣٣).

(٨) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي. أشهر شعراء العرب، وأحد شعراء المعلّقات. ولد بنجدٍ، ومات بأنقرة ـ في تركيا ـ. [الزركلي، مرجع سابق، (٢/١١ ـ ١٢)].

(٩) امرؤ القيس: ديوانه، ١٤٠٤هـ، ص ٣٠.

أي ليست دميمةً، ولا قصيرةً.

وخُلاصة القول: أنَّ العقل في اللغة يُطلق على المنع والحبس.

ووجه تسمية العقل بهذا الاسم: كونه يمنع صاحبَه عن التورُّط في المهالك، ويحبسُه عن ذميم القول والفعل[1].

والفَهْمُ والبيانُ يُسمَّى عقلاً أيضاً؛ «لأنَّه عن العقل كان، فيقول الرجلُ للرجلِ: أعقَلْتَ ما رأيتَ، أو سمِعْتَ؟ فيقول: نعم، يعني: أنِّي قد فَهِمْتُ، وتبيَّنْتُ. والعربُ إنَّما سمَّتِ الفهمَ عقلاً؛ لأنَّ ما فَهمتَه فقد قيَّدْتَه بعقلك، وضَبَطْتَهُ»[2].

وهذا التعريف اللغويّ للعقل يُوضِّح مراد أمير المؤمنين الفاروق ﷺ من قوله «عَقَلْنَاهَا»، في قوله: «إنَّ الله قد بَعَثَ محمَّداً ﷺ بالحقِّ، وأنزلَ عليه الكتاب، فكان ممَّا أنزلَ عليه آيةَ الرَّجْمِ؛ قرأناها، ووَعَيْنَاها، وعَقَلْنَاهَا»[3].

و«عَقَلْنَاهَا»: أي فهمناها، وضبطناها، وأمسكناها.

فما سُمِّي العقل عقلاً إلاَّ لأنَّه يُمسك ما عَلِمَه، ويضبطه، ويفهمه؛ فيُقال: عَقَلَ الشيءَ، إذا فَهِمَهُ، فهو عَقُولٌ.

وعَقَلَ الشيءَ، إذا عَلِمَهُ، أو عَلِمَ صفاتِه؛ من حسنٍ وقُبح، وكمالٍ ونقصان، فأمسكها، وأمكن أن يُميِّز بين القبيح والحسن، والخير والشرِّ[4].

فالعاقل خلاف الجاهل؛ يحبس نفسَه، ويمنعها عمَّا يُوبقها، ويردّها

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٣٦٦هـ، (٦٩/١).
(٢) المحاسبيّ، ١٤٠٦هـ، ص ٢٤.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب رجم الثيِّب في الزنى.
(٤) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، ص ١٣٣٦.

عن هواها، ويُمسك ما يعلمه، ويُميِّز بين ما ينفعه وما يضرّه، في عاجله وآجله.

ثانياً: تعريف العقل اصطلاحاً:

تنوَّعت التعريفات المَقولةُ في العقل، واختلفت، وأغلبها عليه ملاحظات[١].

والتعريفُ الذي اخترتُه تفصيليٌّ، يشتمل على أربعة معانٍ قيلت في العقل، لا ينفكّ واحدٌ منها عن الآخر، متى فُقد واحدٌ منها، قيل لصاحبه: ليس له عقلٌ:

المعنى الأول: الغريزة التي في الإنسان، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان؛ فبها يعلم، وبها يعقِل، وبها يُميِّز، وبها يقصد المنافع دون المضارّ.

يقول أبو حامد الغزالي[٢] (ت ٥٠٥هـ) عن هذا المعنى، أنَّه: «الوصفُ الذي يُفارقُ الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعدَّ به لقبول العلوم النظريَّة، وتدبير الصناعات الخفيَّة الفكريَّة»[٣].

ويقول الماورديّ[٤] (ت ٤٥٠هـ): «فالغريزيّ هو العقل الحقيقيّ، وله حدٌّ يتعلَّق به التكليف، لا يُجاوزه إلى زيادة، ولا يقصُر عنه إلى نقصان، وبه يمتاز الإنسان عن سائر الحيوان»[٥].

---

(١) ابن حسن، ١٤١٢هـ، (١/١٥٧ ـ ١٥٨).

(٢) هو محمَّد بن محمَّد الطوسيّ، أبو حامد الغزالي. اشتغل بعلم الكلام ردحاً من الزمن، ثمَّ كانت خاتمة أمره الإقبال على الحديث ومجالسة أهله. مات سنة خمسٍ وخمسمائة. [ابن خلكان، د.ت، (٤/٢١٦ ـ ٢١٩). والذهبي، سير أعلام النبلاء، ١٤٠٢هـ، (١٩/٣٢٢ ـ ٣٤٦)].

(٣) الغزالي، ١٤٠٦هـ، ص ٥٨.

(٤) علي بن محمد، أبو الحسن الماوردي. من العلماء الباحثين، والمؤلِّفين المكثرين. أقضى قضاة عصره. مات سنة ٤٥٠هـ. [الزركلي، مرجع سابق، (٤/٣٢٧)].

(٥) الماوردي، ١٤٠٧هـ، ص ٦.

ويقول الحارث بن أسد المحاسبيُّ[1] (ت ٢٤٣هـ): «فأمَّا هو في المعنى والحقيقة لا غيره، فهو غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقِهِ، لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض، ولا اطَّلعوا عليها من أنفسهم برؤيةٍ، ولا بحسّ، ولا ذوقٍ، ولا طعم. وإنَّما عرَّفهم الله سبحانه وتعالى إيَّاه بالعقل منهم؛ فبذلك العقل عرفوه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم، بمعرفة ما ينفعهم، ومعرفة ما يضرُّهم»[2].

فبإمكان العباد أن يطَّلعوا بعقولهم على هذه الغريزة؛ أهي موجودة عند فلانٍ، أو ليست كذلك، بالنَّظر إلى أفعال جوارحه؛ فـ «إذا رأوا من أفعاله ما يدلُّهم على أنَّه قد عَرَف ما ينفعه في دنياه وما يضرّه، وإذا رأوه طالباً عاملاً فيما ينفعه من دنياه، مجانباً لما يضرُّه من دنياه، سمَّوا من كان كذلك: عاقلاً، وشهدوا له أنَّ له عقلاً، وأنَّه لا مجنون، ولا تيَّاه، ولا أحمق»[3].

ويُمكن الاستئناس في بيان بعض هذه الصفات ـ التي تُمكن ملاحظتها في العاقل ـ بقول ابن القِرِّيَّة[4] (ت ٨٤هـ): «الرجالُ ثلاثةٌ: عاقلٌ، وأحمق، وفاجر؛ فالعاقل إن كُلِّمَ أجاب، وإن نَطَقَ أصاب، وإن سَمِعَ وَعَى. والأحمقُ إن تكلَّم عَجِلَ، وإن تحدَّث وَهِلَ[5]، وإن حُمِلَ على القبيحِ فَعَلَ..»[6].

---

(١) أبو عبدالله. من شيوخ الصوفيَّة. كان ينتسب إلى قول ابن كُلاَّب في نفي الصفات الاختياريَّة. مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ. [الخطيب البغدادي، د.ت، (٢/٢١٤ ـ ٢١٦). والسلميّ، ١٣٨٠هـ، ص ٥٦ ـ ٦٠].

(٢) المحاسبيّ، مصدر سابق، ص ١٧.

(٣) المحاسبيّ، مصدر سابق، ص ١٨.

(٤) هو أيوب بن زيد الهلالي، المعروف بابن القِرِّيَّة، والقِرِّيَّة أمُّه. معدودٌ من جملة خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة. قتله الحجَّاج بن يوسف سنة ٨٤هـ. [الزركلي، مرجع سابق، (٢/٣٧)].

(٥) ضَعُفَ، وجَبُنَ، وفَزِعَ. [أنيس ورفاقه، ١٩٧٢م، ص ١٠٦٠].

(٦) ابن أبي الدنيا، ١٤٠٩هـ، ص ٤٧.

وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية عن الفرق بين المجنون والعاقل يُشبه هذا الكلام، ومنه قوله: «فالمجنون الذي لا يُميِّز بين الدراهم والفلوس، ولا بين أيام الأسبوع، ولا يفقه ما يُقال له من الكلام ليس بعاقل. أمَّا من فَهِمَ الكلامَ، وميَّز بين ما ينفعه وما يضرّه، فهو عاقلٌ»[1].

يقول أحد الشعراء معدِّداً بعضَ الصفات التي يُستدلُّ بها على عقل العاقل:

يُعْرَفُ عقلُ المرءِ في أربعٍ ... مِشْيَتُهُ أوَّلُها، والحَرَكْ
ودَوْرُ عَيْنَيْهِ، وألفاظُهُ ... بعدُ عليهِنَّ يدور الفَلَكْ
وربَّما أخْلَفْنَ إلاَّ التي ... آخِرُهَا منهنَّ سُمِّينَ لك[2]

فهذه بعضُ صفاتِ مَنْ وَهَبَهُ الله المعنى الأوَّلَ من معاني العقل، ـ وهو الغريزة ـ: فَهْمُ الخطاب، وردّ الجواب، وصلاحُ المِشيةِ، واتِّزان الحركات، واستقرارُ العينين، ونحو ذلك.

وهذه الغريزة ـ التي هي إحدى معاني العقل ـ شرطٌ في المعقولات والمعلومات، وهي مناط التكليف؛ فإذا عُدِمَتْ في الإنسان، سقطت عنه التكاليف الشرعيَّة.

وفي ذلك يقول الحارث المحاسبيّ (ت ٢٤٣هـ): «فالعقل غريزةٌ، جعلها الله في الممتَحَنين من عباده؛ أقام به على البالغين للحُلُم الحجَّةَ، وأنَّه خاطبهم من جهة عقولهم، ووعد، وتوعَّد، وأمر، ونهى، وحضَّ، ونَدَبَ»[3].

وهذا العقل المشروط في التكليف لا بُدَّ أن يكوْنَ عُلوماً يُميِّزُ بها الإنسانُ بين ما ينفعه وما يضرُّه.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ١٤٠٤هـ، (٢٨٧/٩).
(٢) ابن عبد ربه، ١٤٠٤هـ، (١٠٦/٢).
(٣) المحاسبي، مصدر سابق، ص ١٩.

وعن هذا المعنى نفسه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «العقلُ شرطٌ في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، ولكنَّه ليس مستقلاً بذلك، لكنَّه غريزةٌ في النَّفس، وقوَّة فيها، بمنزلة قوَّة البصر التي في العين»[١].

ويُلاحَظ تشبيهه العقلَ بالبصرِ.

وقد سبقه إلى هذا التشبيه البليغ قومٌ، قالوا عن العقل: «هو نورٌ وضعه الله طبعاً وغريزة، يُبصر به، ويُعبّر به. نورٌ في القلب، كالنُّور في العين، وهو البصر..»[٢].

لكنَّ هذا البصر إن اتَّصل به نور الشمس، أو ضوء النَّار، صار أشدّ قوَّة وإبصاراً، وإن انفرد بنفسه، ضَعُفَ.

كذلك صاحب العقل إن وصله بنور الإيمان والقرآن، اهتدى وسَعُدَ. وإذا لم يتَّصل بهما عجز عن إدراك الأمور التي لا يُمكن أن يستقلَّ بإدراكها.

وهذا معنى قول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) عن العقل، أنَّه: «بمنزلة قوَّة البصر التي في العين؛ فإن اتَّصل به نور الإيمان والقرآن، كان كنور العينِ إذا اتَّصل به نور الشمس والنار. وإن انفردَ بنفسه، لم يُبصر الأمورَ التي يعجز وحدَه عن دَرْكِهَا»[٣].

وهذا التشبيه الرائع من ابن تيمية ـ ومن سبقه ـ ينطبق على أولئك الذين اعتصموا بالكتاب والسُّنَّة، وعلى مخالفيهم الذين اتَّكلوا على عقولهم، معرضين عن الاهتداء بنور الوحي، فعموا عن الحقِّ، وضلُّوا عنه، وآل أمرهم إلى التخبُّطِ والحيرة.

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، (٣/٣٣٨).
(٢) المحاسبي، مصدر سابق، ص ١٩.
(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، (٣/٣٣٩).

ويصدق عليهم قول الله ﷻ عن بني آدم عليه السلام: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

المعنى الثاني: العلومُ التي تُلازم الإنسان العاقل؛ فتقع في نفسه ابتداءً، ولا تنفكّ عن ذاته؛ كالعلم بالممكنات، والواجبات، والممتنعات.

وهذا معنى من معاني العقل؛ إذ ثمّة علوم «تخرج إلى الوجودِ في ذات الطفل المميِّز، بجواز الجائزات، واستحالة المستحيلات؛ كالعلم بأنَّ الاثنين أكثر من الواحد، وأنَّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقتٍ واحدٍ»[(١)]، وأنَّ «الشيء لا يخلو من وجودٍ أو عدم، وأنَّ الموجود لا يخلو من حدوثٍ أو قِدَم، وأنَّ من المحال اجتماع الضدَّين»[(٢)].

وهذه العلوم «تشمل جميعَ العقلاء»[(٣)].

المعنى الثالث: العلوم المستفادة من التجارُب، والمكتَسَبَةُ بواسطة العقل، والتي يضبطها الإنسان، ويُمسكها[(٤)].

وهذا العقل يُعدُّ نتيجةً للعقل الغريزيّ، وهو «نهاية المعرفة، وصحّة السياسة، وإصابة الفكرة. وليس لهذا حدٌّ؛ لأنَّه ينمو إن استُعمل، وينقُص إن أُهمل»[(٥)].

وعنه يقول الغزالي (ت ٥٠٥هـ): «الثالث: علومٌ تُستفاد من التجارب بمجاري الأحوال؛ فإنَّ من حنَّكَتهُ التجاربُ، وهذَّبَتْهُ المذاهبُ، يُقال إنَّه

(١) الغزالي، مصدر سابق، ص ٥٩.
(٢) الماوردي، مصدر سابق، ص ٧.
(٣) ابن حسن، مرجع سابق، (١/١٥٩).
(٤) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ١٤٠٣هـ، (٤/٨٥).
(٥) الماوردي، مصدر سابق، ص ٧.

عاقلٌ في العادة، ومن لا يتَّصف بهذه الصفة، يُقال إنَّه غبيّ، غمرٌ، جاهلٌ. فهذا نوعٌ آخر من العلوم يُسمَّى عقلاً»[١].

ونماء هذا النوع يكون بأحد أمرين، هما:

١ ـ كثرة الاستعمال؛ كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة، وصحَّة الرؤية، بكثرة التجارب، وممارسة الأمور.

٢ ـ وفرط الذكاء، وحُسْن الفطنة[٢].

ولقد كانت العرب تقول: «العقلُ: التجاربُ»[٣]، وقد سُئل بعضهم عن العقل، فقال: «لُبٌّ أَعَنْتَهُ بِتَجْرِيبِ»[٤].

وهذه التجارب ليس لها غاية، والعقل منها في ازدياد، كما قال أحدهم:

ألم تَرَ أنَّ العقلَ زَيْنٌ لأهْلِهِ وأنَّ كمالَ العقلِ طولُ التجارُبِ[٥]

فكلَّما كثرت تجارب الإنسان، زاد عقلُه، بسبب ازدياد علومه.

ومكان ضبط هذه العلوم هو القلبُ؛ إذ هو وعاء العلم.

وإلى هذا العقل أشار معاوية ﷺ بقوله: «العقلُ عقلان، عقلُ تجاربٍ، وعقلُ نَحِيزَةٍ. فإذا اجتمعا في رجلٍ، فذاك الذي لا يُقام له. وإذا تفرَّدا، كانت النحيزةُ أولاهما»[٦].

وهو يُشبه قول من قال: «العقل ضربان: عقلُ الطبيعة، وعقل

---

(١) الغزالي، مصدر سابق، ص ٦٠.
(٢) الماوردي، مصدر سابق، ص ٧ ـ ٨.
(٣) ابن أبي الدنيا، مصدر سابق، ص ٥٢.
(٤) المصدر نفسه، ص ٥٠.
(٥) ابن عبد ربه، مصدر سابق، (١٠٩/٢).
(٦) ابن أبي الدنيا، مصدر سابق، ص ٥٠.

التجربة. وكلاهما يُحتاج إليه، ويُؤدِّي إلى المنفعة»[١].

فعقل النخيزة[٢] ـ المذكور في قول معاوية ﷺ ـ، هو الغريزة التي في الإنسان، والتي يمتاز بها عن سائر الحيوان. وعقل التجارب هو العلوم المكتسبة بواسطتها.

وممَّا تنبغي ملاحظته: «أنَّ العقل المكتسب لا ينفكّ عن العقل الغريزيّ؛ لأنَّه نتيجة منه. وقد ينفكّ العقل الغريزيّ عن العقل المكتَسَب، فيكون صاحبُه مسلوبَ الفضائل، موفورَ الرذائل؛ كالأنْوَكِ[٣] الذي لا تجد له فضيلة، والأحمقِ الذي قلَّما يخلو من رذيلة»[٤].

المعنى الرابع: الأعمال التي يستوجبها العلم؛ من إيمان بالله سبحانه وتعالى، وتصديق بكتبه، ورسله، والتزام بأمره ونهيه؛ كحَبْس النفس على الطاعات، وإمساكها عن المعاصي.

وهذا معنى رابع من معاني العقل، وعنه يقول ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «.. لفظ العقل يُطلق على العملِ بالعلمِ»[٥].

فالعمل من لوازم العقل؛ لأنَّ صاحب العقل إذا لم يعمل بعلمه، قيل: إنَّه لا عقلَ له[٦]؛ «فإنَّ العقل مستلزمٌ لعلومٍ ضروريَّةٍ يقينيَّة، وأعظمها في الفطرة: الإقرار بالخالق»[٧].

فحالُ مَنْ لم يعمل بعلمه، أنَّه صاحبُ عقلٍ يُمسكُ علوماً ضروريَّةً

---

(١) ابن عبد ربه، مصدر سابق، (١٠٨/٢).

(٢) ذكر ابن فارس في كتابه «اللفيف في معرفة كلّ معنى لطيف» ص ٦٩، أنَّ «نخيزة» من مرادفات كلمة «طبيعة».

(٣) الأحمق. [الزمخشريّ، مصدر سابق، ص ٦٥٨].

(٤) الماوردي، مصدر سابق، ص ١٤ ـ ١٥.

(٥) ابن تيمية، بغية المرتاد، ١٤٠٨هـ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، (٣٣٦/١٦).

(٧) المصدر نفسه.

فطريَّةٌ، يعرِف بها ربَّه ﷻ، ولكنَّ هواه صدَّه عن اتِّباع موجب العقل، فصار لا عقل له بهذا الاعتبار.

وقد اتَّصف هذا بمعاني العقل الثلاثة المتقدِّمة؛ فمعه غريزة العقل التي فرَّق الله سبحانه وتعالى بها بين العقلاء والمجانين، ومعه علومٌ ضروريَّة فطريَّة، ولديه علومٌ مكتسَبَةٌ؛ فقد جاءته الرُّسل بالبيِّنات، ولكنَّه لم يحظَ بشرف الاتِّصاف بهذا المعنى الرابع؛ وهو العمل بعلمه، لذلك يُقال عنه: إنَّه غيرُ عاقلٍ عن الله ﷻ.

وقد وَصَفَ الله ﷻ في كتابه رِجالاً بالعقل، وأخبر في الوقت نفسه أنَّهم لم يستفيدوا منها؛ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً[1] فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فهؤلاء قد عَقَلُوا البيان الذي لزمتهم من أجله الحجَّة، لكنَّهم لم يعملوا بما عقلوا؛ فحالهم أنَّ لهم عقولاً يعرفون بها الحقَّ، ولكنَّ هواهم صدَّهم عن اتِّباع موجب العقل، فلا عقل لهم بهذا الاعتبار[2].

وقد وصفهم سبحانه وتعالى في موضع آخر بالعقل الذي يميِّزون به، ويعقلون به أمورَ الدنيا كلَّها في الجليل والدَّقيق، لكنَّهم للآخرة لا يعقلون؛ فقال ﷻ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهم «بالدنيا أهل بصرٍ وسمع وعقل. فلم يَغْنِ أنَّهم صُمٌّ خُرسٌ مجانين، وإنَّما عذَّبهم لأنَّهم يعقلون. ولو تدبَّروا ما يرون ويسمعون من الدلائل عليه؛ من آيات الكتاب، وآثار الصَّنعة، واتِّصال التدبير، الذي يدلُّ على أنَّه واحدٌ لا شريك له»[3]؛ أي لدلَّهم ذلك على أنَّه المعبود بحقّ وحدَه.

---

(١) أي عقولاً.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، (٣٣٧/١٦).

(٣) المحاسبي، مصدر سابق، ص ٣١.

فالعاقل ـ كما قال سفيان بن عيينة[1] (ت ١٩٨هـ) ـ: ليس «الذي يعرف الخيرَ من الشرِّ، ولكنَّ العاقل الذي يعرفُ الخيرَ فيَتَّبِعُهُ، ويعرِفُ الشرَّ فَيجْتَنِبُهُ»[2].

لذلك لمَّا وُصِفَ نصرانيٌّ بالعقل أمام أحد العلماء، قال: «مَه، إنَّما العاقل مَنْ وَحَّدَ الله، وعَمِلَ بطاعتِهِ»[3].

والله تعالى قد حكى عنهم قولَهم ـ وهم في النَّار ـ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: ١٠].

«وقد كانت لهم عقولٌ وأسماع، لزمتهم بها الحجَّة لله ﷻ، وإنَّما عنى ﷻ أنَّها لم تعقِل عن الله فَهْماً لما قال؛ من عظيم قدرِه، وقدر عذابه، فندمت، وتأذَّت بالويل والندم، لا لأنَّها لم تكن تسمع ولا تعقل، ولا كانوا مجانين، ولكن يعقلون أمر الدنيا، ولا يعقلون عن الله ما أخبر عنه، وتوعَّد ووعد»[4].

وليس عدم العقل في عدم الإيمان فحسب، بل عدم العقل في ارتكاب المعاصي، وتضييع الفرائض؛ فمن ضيَّع الفرائض، وارتكب المحرَّمات، لم يَعْقِلْ عظيم قدر الله في جلاله وهيبته، وعظيم قدر ثوابه وعقابه في القيام بفرائضه، وارتكاب معاصيه؛ فالعاقل من يَغلِبُ إيمانُه هواه، وحلمُه جهلَه. لذلك قال عامر بن عبد قيس[5] (ت ٥٥هـ): «إذا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عمَّا لا ينبغي، فأنت عاقلٌ»[6].

---

(١) ابن أبي عمران؛ ميمون الهلالي. إمام، حجَّة، ثقة، حافظ، فقيه. مات سنة ثمانٍ وتسعين ومائة، وله إحدى وتسعون. [ابن حجر، ١٤٠٦هـ، ص ٢٤٥].

(٢) ابن أبي الدنيا، مصدر سابق، ص ٥٩.

(٣) الأصفهاني، ١٤٠٨هـ، ص ٩٦.

(٤) المحاسبي، مصدر سابق، ص ٣١.

(٥) هو عامر بن عبدالله، المعروف بابن عبد قيس العنبريّ. تابعيٌّ من العُبَّاد. مات ببيت المقدس في خلافة معاوية ﷺ. [الزركلي، مرجع سابق، (٢٥٢/٣ ـ ٢٥٣)].

(٦) الماوردي، مصدر سابق، ص ٩.

وسُئل أعرابيّ: «أي منافع العقل أعظم؟ قال: اجتناب الذنوب»[1].

فالعملُ ثمرةُ العقل وفائدتُه، ولا عقلَ لمن لم يعمل بموجب ما دلَّه إليه عقلُهُ.

إذا تبيَّنْتَ هذا، فاعلم أنَّ العقلَ يُطلق على كلِّ هذه المعاني الأربعة مجتمعةً: الغريزة، والعلوم الضروريَّة، والعلوم المكتسبة، والعمل بالعلم.

ويشهد لهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (ت ٧٢٨هـ) عن العقل: «هو علمٌ، أو عملٌ بالعلمِ، وغريزةٌ تقتضي ذلك»[2].

«فالعقل لا يُسمَّى به مجرَّد العلم الذي لم يَعمل به صاحبُه، ولا العمل بلا علم؛ بل إنَّما يُسمَّى به العلمُ الذي يُعملُ به، والعمل بالعلم، ولهذا قال أهل النَّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ﴾ [المُلك: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]»[3].

المسألة الثانية: منزلة العقل في الإسلام:

لقد امتنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ على الإنسان بأن منحه نعمة العقل الذي يُميِّزه عن سائر الحيوانات؛ فقال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المُلك: ٢٣]؛ فبالسمع تسمعون، وبالأبصار تُبصِرون، وبالأفئدة تعقلون، ولكن قليلاً ما تشكرون[4].

فالأفئدة هي محلّ العقول، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَٰرُ

(١) ابن عبد ربه، مصدر سابق، (١١١/٢).

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، ١٤٠٢هـ، (٣٠٢/١٠).

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، (٢٨٦/٩ ـ ٢٨٧).

(٤) ابن جرير الطبري، ١٤١٢هـ، (١٧٢/١٢).

﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]؛ فجعل العقل في القلب، ثمَّ أخبر أنَّه يُتغطَّى على هذا العقل الذي في الصدر.

يقول الإمام الشوكاني[(١)] (ت ١٢٥٠هـ): «وأُسْنِدَ التعقُّلُ إلى القلوبِ لأنَّها محلُّ العقلِ، كما أنَّ الآذان محلُّ السمع»[(٢)].

ويُستأنس لهذا بقول الفاروق عمر ﷺ عن ابن عبَّاس ﷺ: «ابن عبَّاس فتى الكهول، له لسانٌ سؤول، وقلبٌ عقول»[(٣)].

«وإضافة العربِ الشيءَ إلى الشيءِ، إمَّا لكونه هو هو، أو مكانَه. وليس القلبُ عقلاً بإجماعٍ. لم يبقَ إلا أنَّه محلُّ العقلِ، بإضافة الشيءِ إلى محلِّه. ومَنْ خَلَقَ العقلَ أعلمُ بمحلِّه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [المُلك: ١٤]»[(٤)].

فالعقل محلُّه القلب، وهو نعمةٌ، وهِبَةٌ من الله، أعطاه عبادَه بلا عِوَضٍ.

وهذه النعمة هي التي ترفع صاحبها إلى مستوى التكاليف الشرعيَّة الإلٰهية، وتؤهِّله لإدراكها وفهمها؛ فالعقل مناط التكليف.

يقول أبو الوفاء؛ ابن عقيل[(٥)] (ت ٥١٣هـ) موضِّحاً معنى التكليف: «وهو المطالبة بالفعل أو الاجتناب له، وذلك لازمٌ في الفرائض العامَّة؛ نحو

---

(١) هو محمد بن علي بن محمد الشوكاني. فقيهٌ، مجتهد، عالمٌ من كبار علماء اليمن. مات سنة ١٢٥٠هـ. [الزركلي، مرجع سابق، (٦/٢٩٨)].

(٢) الشوكاني، ١٣٨٣هـ، (٣/٤٥٩).

(٣) ابن عبد البر، ١٣٩٨هـ، (٢/٣٥٢).

(٤) ابن عقيل الحنبليّ، ١٤٢٠هـ، (١/٢٧).

(٥) هو عليّ بن عقيل بن محمَّد البغدادي الحنبليّ. من متكلِّمي الحنابلة. مات سنة ٥١٣هـ. [الذهبي، السير، مصدر سابق، (١٩/٤٤٣ ـ ٤٥١). الزركلي، مرجع سابق، (٤/٣١٣)].

التوحيد، والنبوَّة، والصلاة، وما جرى مجرى ذلك، لكلِّ عاقلٍ، بالغٍ...»[1]. فالتكليف للعاقل.

ويقول الآمديّ[2] (ت ٦٣١هـ): «اتَّفق العقلاء على أنَّ شرطَ المكلَّفِ أن يكون عاقلاً، فاهِماً للتكليف؛ لأنَّ التكليف خطابٌ، وخطابُ من لا عقلَ له ولا فهمَ مُحالٌ؛ كالجماد، والبهيمة»[3].

ويقول الطُّوفيّ[4] (ت ٧١٦هـ): «من شروط المكلَّف: العقلُ، وفهمُ الخطاب؛ أي: يكون عاقلاً، يفهمُ الخطابَ، ولا بُدَّ منهما جميعاً»[5].

فالمكلَّف لا بُدَّ أن يكون عاقلاً يفهم الخطاب. ومن هنا لم يُكلَّف المجنون؛ «لأنَّ مقتضى التكليف: الطاعة والامتثال. ولا تمكن إلا بقصد الامتثال. وشرط القصد: العلمُ بالمقصود، والفِهمُ للتكليف؛ إذ مَنْ لا يفهم، كيف يُقال له: افْهَمْ، ومن لا يسمع، لا يُقال له: تكلَّم. وإن سَمِعَ ولم يفهم كالبهيمة، فهو كمن لا يسمع...»[6].

فالعقلُ هو الذي يرفع الإنسان إلى مستوى التكاليف الإلٰهيَّة.

وليس ثمَّة عقيدة تقوم على احترام العقل الإنسانيّ، وتكريمه، والاعتزاز به، والاعتماد عليه في فهم النصوص، كالعقيدة الإسلاميَّة.

---

(١) ابن عقيل، مصدر سابق، (١/٦٨).

(٢) علي بن أبي محمد بن سالم، أبو الحسن الآمديّ. أصوليّ، من رؤوس الأشعريَّة. توفي سنة ٦٣١هـ. [الذهبي، السير، مصدر سابق، (٢٢/٣٦٤). والزركلي، مرجع سابق، (٤/٣٣٢)].

(٣) الآمديّ، ١٣٨٨هـ، (١/١٥٠).

(٤) هو سليمان بن عبد القويّ بن عبدالكريم الطوفيّ، أبو الربيع الصرصريّ. من فقهاء الحنابلة. مات سنة ٧١٦هـ. [الزركلي، مرجع سابق، (٣/١٢٧ ـ ١٢٨)].

(٥) الطوفيّ، ١٤١٩هـ، (١/١٨٠).

(٦) ابن قدامة المقدسي، روضة النَّاظر، ١٤٠٤هـ، (١/١٣٧).

بل إنَّ العقيدة الإسلاميَّة تدعو العقلَ إلى تشغيل طاقاته، وتستثيره ليؤدِّي دورَه الذي خلقه الله من أجله، وتُنبِّهه ليتدبَّر، ويتفكَّر، وينظُرَ، ويتأمَّل؛ مدلِّلةً بذلك على أنَّ الدعوةَ إلى الإيمان قامت على الإقناع العقليّ.

ويبدو هذا واضحاً في آيات كثيرةٍ من كتاب الله الكريم، تكرَّرت عشرات المرَّات في السياق القرآني، مَدَحَ الله ﷻ من خلالها مسمَّى العقل، ورفع من شأنه[1]، من خلال توجيهه إلى النظر، والتفكُّر، والتدبُّر، والتأمُّل؛ مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، وقوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٨]، وقوله ﷻ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]. وغير ذلك من الآيات التي لا يُمكن حصرها في مكانٍ واحدٍ.

وقد اعتنى الإسلامُ بالعقل؛ فأمر جلَّ جلاله بالمحافظة عليه، ونهى عن كلِّ ما يضرُّ به، أو يُعطِّلُ عَمَلَهُ.

فحرَّم سبحانه وتعالى المسكِراتِ والمُخدِّراتِ لما لها من أثرٍ سيِّءٍ على عقلِ الإنسان؛ فالخمرُ سُمِّيَتْ خمراً بسبب تخميرِها العقلَ؛ أي ستره وتغطيته. يُقال: خَمِّر إناءَك، إذا طُلِبَ منك أن تُغطِّيه[2].

(١) ابن تيمية، النبوَّات، ١٤٠٥هـ، ص ٩٣.

(٢) الرازي، ١٩٧٣م، ص ١٨٩.

من أجل ذا حرَّمها المولى جلَّ جلاله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

فالخمر في حال سترها للعقل تجعلُ متعاطيها أشبه بالسفيه الذي لا يُحسن التصرُّفَ، أو المجنون الذي لا يشعر بما يرتكب من جرائم تخلُّ بالدين والشرف.

وأشدّ من الخمر في الفتك بالعقلِ: المخدِّراتُ، التي تُزيلُ العقلَ، وتُفسدُ القلبَ، وتجعلُ متعاطيها يعيش في غيبوبةٍ دائمةٍ، هارباً من واقعِهِ.

من أجل ذا حرَّمها الإسلامُ ـ كما حرَّم الخمر ـ، لجامع السّكر في الاثنين؛ فرسولنا ﷺ **«نَهى عن كُلِّ مُسْكِرٍ ومُفَتِّرٍ»**(١)، وأخبر أنَّ **«ما أَسْكَرَ كثيرُهُ، فقليلُهُ حرامٌ»**(٢)، وأنَّ **«كل مسكرٍ خمرٌ، وكلَّ خمرٍ حرامٌ»**(٣).

وقد قاس شيخ الإسلام ابنُ تيمية (ت ٧٢٨هـ) حكمَ قليل «الحشيش» على قليل «المسكر»، بجامع مُخامرة كلٍّ منهما للعقل، فقال: «وأمّا قليلُ الحشيشةِ المسكرةِ، فحرامٌ عند جماهير العلماء، كسائر القليل من المسكرات»(٤).

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب في النهي عن المسكر. وأحمد في المسند (٤/٢٧٣).

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب في النهي عن المسكر. وسنن ابن ماجه، كتاب الأشربة، باب ما أسكر كثيرة فقليله حرامٌ. وصحَّحه الألباني في صحيح سنن أبي داود، مرجع سابق، (٢/٧٠٢)، ح٣١٢٨، وصحيح سنن ابن ماجه، ١٤٠٨هـ، (٢/٢٤٥)، ح٣٣٩٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن. وكتاب الأدب، باب ما لا يستحيا من الحق، وكتاب الأحكام، باب أمر الوالي إذا وجّه أميرين إلى موضع. وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أنَّ كل مسكر خمر.

(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، (٣٤/٢٥٤).

والمخدِّراتُ كلُّها مُسكرةٌ، والوعيد المترتِّب على تعاطي الخمرِ، هو الوعيد المترتِّب على تعاطي أنواع المخدِّرات المختلفة؛ بجامع اشتراك الكُلِّ في إزالةِ العقلِ، ولعمومِ نهيه ﷺ عن كُلِّ مُسْكِرٍ ومُفَتِّرٍ.

فكلُّ ما جاء في وعيد شارب الخمر، يأتي في مستعمِل شيء من هذه المذكورات؛ «لاشتراكهما في إزالة العقلِ المقصود للشارعِ بقاؤه؛ لأنَّه الآلةُ للفهمِ عن الله تعالى، وعن رسوله ﷺ، والمتميِّز به الإنسانُ عن الحيوان، والوسيلةُ إلى إيثار الكمالات عن النقائص. فكان في تعاطي ما يُزيله وعيد الخمر»[1].

ولا ريب أنَّ النهي عن هذه الأشياء المضرَّة بالعقل، من أقوى الأدلَّة على عناية الإسلام به، ومحافظته عليه.

وعلينا أن لا ننسى أنَّ العقل واحدٌ من الضروريَّات الخمسة التي عُني الإسلام ـ كسائر الشرائع ـ بحفظِها.

فالشريعة الإسلاميَّة تدور أحكامها حول حماية خمسة أمور، هي أمَّهات لكلِّ الأحكام الفرعيَّة، ويُسمُّونها الضروريَّات الخمسة، وهي: حفظ الدين، حفظ النَّفس، حفظ العقل، حفظ العرض، حفظ المال.

وتتجلَّى حماية الإسلام للعقل في[2]:

١ ـ تربيته على حُسْن المعرفة، والمنطق العلميّ، والفكر الاستدلاليّ، والمنهج التجريبيّ.

٢ ـ النهي عن كلِّ ما يضرُّ به، أو يُعطِّل وظيفته؛ كالنهي عن المسكرات والمفترات ـ كما مرَّ ـ.

٣ ـ الأمر بتغذيته بالعلوم النافعة، واستعماله في الخير.

---

(١) الهيتمي، (د.ت.)، (١/٢١٢).

(٢) النحلاوي، ١٣٩٩هـ، ص ٦٧.

٤ ـ النهي عن الاعتداء عليه بأيِّ نوعٍ من أنواع الاعتداء؛ كالضرب ونحوه.

ولقد جعل الإسلامُ الديةَ كاملةً في حقِّ مَنْ ضَرَبَ آخر، فأذهبَ عقلَه.

يقول عبدالله[١] ابن الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمهما الله ـ: «سمعتُ أبي يقول: في العقلِ ديةٌ؛ يعني إذا ضُرِبَ، فذَهَبَ عَقْلُهُ»[٢]. وهذا لا خلاف فيه بين علماء المسلمين[٣]؛ لأنَّ العقلَ «أكبرُ المعاني قَدْراً، وأعظمُ الحواس نفعاً؛ فإنَّ به يتميَّز من البهيمة، ويَعْرِف به حقائق المعلومات، ويهتدي إلى مصالحه، ويتَّقِي ما يضرُّه، ويدخل به في التكليف. وهو شرطٌ في ثبوت الولايات، وصحَّة التصرُّفات، وأداء العبادات، فكان بإيجاب الدية أحقّ من بقيَّة الحواس»[٤].

فأيّ تكريم أعظم من هذا التكريم!!

المسألة الثالثة: مجالات العقل ومداركه في الإسلام:

من سمات التكريم التي حظيَ بها العقلُ في الإسلام، تلك المجالات التي حُدِّدت له ليخوضَ فيها، حتى لا يضلَّ، ولا يزيغ، ولا يتخبَّط في الظلمات إذا ما نأى عنها، وخاض في غيرها.

والله ﷻ قد «جَعَلَ للعقولِ في إدراكها حدّاً تنتهي إليه لا تتعدَّاهُ، ولم يَجْعَلْ لها سبيلاً إلى الإدراك في كلِّ مطلوبٍ»[٥].

---

(١) هو عبدالله بن أحمد بن محمّد بن حنبل، أبو عبدالرحمن الشيباني. إمام، حافظ، ناقدٌ، محدِّث بغداد. مات سنة تسعين ومائتين، عن سبعٍ وسبعين سنة. [الخطيب البغدادي، مصدر سابق، (٩/٣٧٥ ـ ٣٧٦). والذهبي، السير، مصدر سابق، (١٣/٥١٦ ـ ٥٢٦)].

(٢) الإمام أحمد، المسائل برواية عبدالله، ١٤٠٨هـ، ص ٤١٧.

(٣) نصَّ على ذلك الإمام ابن قدامة المقدسي في كتاب «المغني»، ١٤١٠هـ، (١٢/١٥١).

(٤) ابن قدامة، المغني، مصدر سابق، (١٢/١٥٢).

(٥) الشاطبي، ١٤٠٥هـ، (٢/٣١٨).

وعقول البشر يعتريها ما يعتري البشر من ضعفٍ، وعَجْزٍ، ونقصٍ.

وهي متفاوتة، كما قال وَهبُ بنُ مُنَبِّه[1] (ت ١١٠هـ): «كما تتفاضَلُ الشجرُ بالأثمارِ، كذلك تتفاضلُ النَّاس بالعقلِ»[2].

ويشهد لتفاوتها: قوله ﷺ للنِّساء: **«ما رأيتُ من ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازمِ من إحداكُنَّ»**[3]؛ فقد دلَّ بمنطوقِه على النُّقصان، وبمفهومه على الزيادة، وهو معنى التفاوت.

وكذا الإجماع دلَّ على التفاوت؛ فـ «كلّ النَّاس يقولون: عقلُ فلانٍ قليلٌ، وعقلُ فلانٍ أكثرُ من عقل فلان، وفلانٌ غيرُ عاقلٍ. قيل: هذا كُلُّه يُراد به أكثر استعمالاً وتدبُراً وتفكُراً من الآخر. قيل: فذلكَ التدبُر والتفكّر علامةٌ على كثرة العقل؛ إذ لو كان مثلَ الآخر، لما تفكَّر أكثر، ولا تدبَّر»[4].

وهذا التفاوتُ يتطرَّق إلى معاني العقل كلِّها، عدا المعنى الثاني؛ وهو العلومُ التي تُلازِم الإنسان العاقل؛ فتقع في نفسه ابتداءً، ولا تنفكُّ عن ذاتِه؛ «فإنَّ مَنْ عَرَفَ أنَّ الاثنين أكثرُ من الواحدِ، عَرفَ أيضاً استحالةَ كون الجسم في مكانين، وكون الشيء الواحد قديماً حادثاً. .إلخ»[5].

وهذا كلُّه يتساوى فيه بنو البشر.

وتفاوت العقول يدلُّ على أنَّ لكلِّ واحدٍ منها حدّاً وغاية - في إدراك الأشياء - ينتهي إليه، ولا يتعدَّاه.

---

(١) ابن كامل، أبو عبدالله اليماني الصنعاني. تابعي ثقة. مات سنة عشر ومائة. [الذهبي، السير، مصدر سابق، (٤/٥٤٤)].

(٢) ابن أبي الدنيا، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم. وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات. واللفظ للبخاريّ.

(٤) الكلوذانيّ، ١٤٠٦هـ، (١/٥٥ - ٥٦).

(٥) الغزالي، مصدر سابق، ص ٦٦.

فالعقلُ لا يُدرِكُ كلَّ ما جاء به الرسول ﷺ، أو أخبر عنه؛ فمدارِكُهُ ليست شاملة.

من أجل ذا قال الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤٠هـ): «ليس في السُّنَّة قياسٌ، ولا يُضرب لها الأمثال، ولا تُدرك بالعقول»[١].

وقد عقَّب عليه شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) بقوله: «هذا قوله، وقول سائر أئمَّة المسلمين؛ فإنَّهم متَّفقون على أنَّ ما جاء به الرسول ﷺ لا تُدركه كلّ النَّاس بعقولهم، ولو أدركوه بعقولهم لاستغنوا عن الرسول»[٢]. والله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والعلوم من حيث إدراك العقل لها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ «قسم ضروريّ لا يُمكن التشكيك فيه؛ كعلم الإنسان بوجوده، وعلمه بأنَّ الاثنين أكثر من الواحد، وأنَّ الضدَّين لا يجتمعان، . .»[٣].

٢ ـ «وقسمٌ نظريٌّ يُمكن العلم به، ويُمكن أن لا يُعْلَمَ بِهِ؛ وهي النظريَّات. وذلك كالممكنات التي تُعلم بواسطة، لا بأنفسها. إلاَّ أن يُعْلَمَ بها إخباراً»[٤].

٣ ـ «وقسمٌ لا يعلمه البتة، إلاَّ أن يُعْلَمَ بِهِ، أو يُجْعَلَ له طريقٌ إلى العلم به. وذلك كعلم المغيَّبات عنه؛ كانت من قبيل ما يعتاد علم العبد به أولاً؛ كعلمه بما تحت رجليه، إلاَّ أنَّ مغيبه عنه تحت الأرض بمقدار شبرٍ؛ وعلمه بالبلد القاصي عنه، الذي لم يتقدَّم له به عهد. فضلاً عن علمه بما في السموات، وما في البحار، وما في الجنَّة أو النَّار

---

(١) ابن أبي يعلى، (د.ت.)، (١/٢٤١).

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، مصدر سابق، (٥/٢٩٧).

(٣) الشاطبي، مصدر سابق، (٢/٣١٨).

(٤) الشاطبي، مصدر سابق، (٢/٣١٩).

على التفصيل. فَعِلْمُهُ بما لم يُجعَل له عليه دليلٌ غيرُ ممكن»[1].

ويدخل في هذا القسم ـ الأخير ـ أغلبُ مسائل الاعتقاد؛ فلا تُعْلَمُ إلا عن طريق الخبر؛ إذ لا يُمكن للعقول أن تستقلَّ بمعرفة هذه المسائل، لولا مجيء الوحي بها، وبأدلّتها العقليّة. وما على العقل إلاّ فهمُها وتدبّرها.

«وأيضاً فإنّ كثيراً من مسائل الاعتقاد ـ بعد معرفتها، والعلم بها عند العقول ـ لا تُدرِكُ العقولُ حقيقَتَها وكيفيَّاتِها»[2].

ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ **الروح**، التي ليست من مدارك العقل؛ لذلك لمَّا سألت يهودُ رسولَ الله ﷺ عنها، لم يُبيِّنْ لهم ماهيَّتها، بل قال: هي من أمرِ ربِّي:

فقد أخرج الإمامان البخاريّ ومسلمٌ في صحيحيهما[3] أنَّ اليهودَ مرّوا برسول الله ﷺ، وهو متّكىء على عَسِيبٍ، فقال بعضهم لبعضٍ: سلُوه عن الروح، فسألوه. فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يردَّ عليهم شيئاً، حتّى نزلَ عليه الوحي: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

فهذه الروح التي تُوجد فينا، والتي توصف بصفات متعدِّدة، منها: الوجود، والحياة، والقدرة، والسمع، والبصر، والصعود، والنزول، وغير ذلك. وهي مخلوقةٌ، ومع ذلك فالعقول قاصرةٌ عن معرفة كيفيَّتها، وتحديدها؛ لأنّهم لم يُشاهدوا لها نظيراً، كما قال شيخ

(١) الشاطبي، مصدر سابق، (٣١٨/٢ ـ ٣١٩).
(٢) ابن حسن، مرجع سابق، (١٧٨/١).
(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: «ويسألونك عن الروح». وصحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب سؤال اليهودِ النبيَّ ﷺ عن الروح.

الإسلام رحمه الله: «والنَّاس لمَّا لم يشهدوا لها نظيراً، عَسُرَ عليهم التعبير عن حقيقتها»[(١)].

٢ ـ **أما عن صفات الله عز وجل**، فللعقلِ دورٌ في تفهُّم معانيها؛ لأنَّا «بعقولنا نَعْتَبِرُ الغائبَ بالشاهِدِ، فتبقى في أذهاننا قضايا عامَّة كليَّة، ثمَّ إذا خوطِبْنا بوصفِ ما غاب عنَّا، لم نفهمْ ما قِيلَ لنا إلا بمعرفةِ المشهودِ لنا»[(٢)].

وأمَّا حقيقةُ الصفاتِ وكيفيَّاتُها: فلا يُدركها العقل، مع أنَّه لا يحيلها؛ إذ كيف يُدركُ ما يفتقِرُ إلى تصوّرِه.

ونحن لا نعلم كيفيَّة صفات ربِّنا عز وجل؛ «إذ العلمُ بكيفيَّة الصفة يستلزم العلم بكيفيَّة الموصوف، وهو فرعٌ له، وتابعٌ له. فكيف تُطالبني بالعلم بكيفيَّة سمعه، وبصره، وتكليمه، واستوائه، وأنت لا تعلم كيفيَّة ذاته!. وإذا كنت تُقرُّ بأنَّ له ذاتاً حقيقيَّة ثابتةً في نفس الأمر، مستوجبة لصفات الكمال، لا يُماثلها شيء؛ فسمعه، وبصره، وكلامه، ونزوله، واستواؤه ثابتٌ في نفس الأمر، وهو متَّصفٌ بصفات الكمال التي لا يُشابهه فيها سمعُ المخلوقين، وبصرهم، وكلامهم، ونزولهم، واستواؤهم»[(٣)].

لذلك لمَّا جاء رجلٌ إلى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه؛ إمام دار الهجرة، فقال له: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ أطْرَقَ الإمام مالكٌ برأسِه، وعَلَتْهُ الرُّحضاءُ[(٤)]، ثمَّ رَفَعَ رأسَهُ، وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ كما وَصَفَ نفسَه، فلا يُقالُ: كيفَ،

---

(١) ابن تيمية، تفسير سورة الإخلاص، ١٤٠٨هـ، ص ٢٠٢.
(٢) ابن تيمية، شرح حديث النزول، ١٤١٤هـ، ص ١٠٤.
(٣) ابن تيمية، الرسالة التدمريَّة، ١٤٠٥هـ، ص ٤٤ ـ ٤٥.
(٤) الرّحَضاءُ: عرقٌ يغسل الجلدَ لكثرتِهِ. [الزبيدي، ١٣٠٦هـ، (٥/٣٢)].

و«كيفَ» عنه مرفوعٌ، وقال للسائلِ: أنت صاحبُ بدعةٍ، وطلبَ من أصحابِهِ أن يُخرجوه من مجلِسِهِ[1].

فسببُ إنكار الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ على السائل، كونه أراد أن يخوض بعقله، ما ليس في متناول عقله؛ وهو إدراك كيفيَّة الصفة؛ لأنَّ الربَّ جل جلاله لا يُحيط به علماً أحدٌ من خَلْقِهِ.

٣ - وكذلك ما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه من أمور الآخرةِ؛ كالجنَّة ونعيمها، والنَّار وجحيمها، وغير ذلك من المغيَّبات، ليست من مدارك العقل، ولا في متناوله، مع أنَّ العقل يُقرُّ بها، ولا يُحيلها.

ولنأخذ على ذلك مثالاً بنعيم الجنَّة؛ فالله سبحانه وتعالى أخبرنا عمَّا في الجنَّة من المخلوقات؛ «من أصناف المطاعم، والمشارب، والمناكح، والمساكن؛ فأخبرنا أنَّ فيها لبناً، وعسلاً، وخَمْراً، وماء، ولحماً، وفاكهة، وحريراً، وذهباً، وفضَّة، وحوراً، وقصوراً، وقد قال ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ليس في الدنيا شيءٌ ممَّا في الجنَّة، إلاَّ الأسماء[2]»[3].

أما الكيفيَّة، فمختلفة، ولا طاقة للعقل في إدراك كيفيَّة هذا النعيم المقيم، الذي أعدَّه الله للمتَّقين، مع أنَّ وجودَه لا يتعارض معه بحال.

«ونحنُ إذا تدبَّرنا عامَّة ما جاء في أمر الدين؛ - من ذكر صفات الله عَزَّ وَجَلَّ، وما تُعُبِّدَ النَّاس باعتقاده، وكذلك ما ظهر بين المسلمين وتداولوه بينهم، ونقلوه عن سلفهم، إلى أن أسندوه إلى رسول الله ﷺ؛ من ذكر

(١) البيهقي، ١٤١٣هـ، (٢/٣٠٤ - ٣٠٥)، ح٨٦٦. ووصف الإمام الذهبي في كتابه «العلوّ، ١٣٨٨هـ، ص ١٠٣» هذا الإسناد بأنَّه صحيح، وقال: «هذا ثابتٌ عن مالك».

(٢) أثر ابن عباس أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره، مصدر سابق، (١/٢١٠).

(٣) ابن تيمية، الرسالة التدمريَّة، مصدر سابق، ص ٤٦.

عذاب القبر، وسؤال الملكين، والحوض، والميزان، والصِّراط، وصفات الجنَّة، وصفات النَّار، وتخليد الفريقين فيهما ـ، أمورٌ لا تُدْرَكُ حقائقُها بعقولنا، وإنَّما ورد الأمر بقبولها والإيمان بها. فإذا سمعنا شيئاً من أمور الدين، وعقلناه، وفهمناه، فللَّه الحمد في ذلك والشكر، ومنه التوفيق. وما لم يمكنَّا إدراكه وفهمه، ولم تبلغه عقولنا، آمنَّا به وصدَّقنا..»[1].

وهذا راجعٌ إلى أنَّ نصوص الكتاب والسُّنَّة لا تتعارض مع العقل الصريح.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «فيأخذ المسلمونَ جميعَ دينهم ـ من الاعتقادات، والعبادات، وغير ذلك ـ من كتاب الله، وسُنَّةِ رسولِهِ، وما اتَّفق عليه سلف الأمَّة وأئمَّتها. وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح؛ فإنَّ ما خالف العقل الصريح فهو باطلٌ. وليس في الكتاب والسُّنَّةِ والإجماع باطل. ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعضُ النَّاس، أو يفهمون منها معنى باطلاً، فالآفةُ منهم، لا من الكتاب والسُّنَّة»[2].

وإذا كان كذلك، فإنَّ العقلَ **مُطالَبٌ بالتسليم للنصِّ الشرعيِّ الصريح**، ولو لم يفهمه، أو يُدْرِكِ الحكمةَ التي فيه؛ لأنَّ الشارع نصَّ على كلِّ ما يَعْصِمُ من المهالك نصّاً قاطعاً للعذر، فلا حجَّة لأحدٍ بعد بيانه، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، مستدلاً على ذلك بآياتٍ كثيرةٍ، منها[3]: قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وقول أبي ذر الغفاري ﷺ: «لقد تركنا رسول الله ﷺ، وما يَتَقَلَّبُ في السماء طائرٌ، إلا

---

(١) السيوطي، ١٣٦٦هـ، ص ١٨٢.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، (١١/٤٩٠).

(٣) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، مصدر سابق، (١/٧٣ ـ ٧٤).

ذكر لنا منه علماً»[1]، وقول سلمان الفارسيّ ﷺ حين قيل له: قد عَلَّمَكم نبيُّكم كلَّ شيءٍ حتَّى الخِراءة[2]؟ فقال: «أَجَلْ؛ لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائطٍ أو بولٍ، أو أن نستنجيَ باليمين، أو أن نستنجيَ بأقلّ من ثلاثة أحجارٍ، أو أن نستنجيَ برجيعٍ أو بعظمٍ»[3].

فهل يُعقل أن يُعلِّمهم ﷺ هذه الأمور، ويُهمل ما كان أعظم منها؟!

والجواب: لا. وفي هذا دليلٌ على أنه ﷺ ترك أُمَّته على مثل البيضاء، فوجب الامتثال لأمره، والانقياد لحكمه.

وعلينا أن لا ننسى أنَّ أوَّلَ ذنبٍ عُصِيَ الله سبحانه وتعالى به، كان سببه عدم الامتثال لأمر الله ﷻ؛ وذلك حين أمر الله سبحانه وتعالى إبليسَ بالسُّجود لآدم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤، الإسراء: ٦١، الكهف: ٥٠، طه: ١١٦]، لم يمتثل الأمر؛ فكان أوَّل مَنْ قاسَ[4]، إذ رَكَنَ إلى عقلِهِ، فلم يهدِهِ إلى السبب الذي لأجله يسجد الفاضل للمفضول ـ على حسب ظنِّه ـ، فعصَى، فعُوقِب: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، صَ: ٧٦].

وهذه أوَّل شبهةٍ وَقَعَتْ في الخليقة؛ كما قال الشهرستاني[5] (ت ٥٤٨هـ): «اعْلَم أنَّ أوَّلَ شبهةٍ وقعت في الخليقةِ: شبهةُ إبليسَ لعنه الله، ومصدرها استبداده بالرأي في مقابلة النصّ، واختياره الهوى في معارضة الأمر، واستكباره بالمادة التي خُلِقَ منها؛ وهي النَّارُ، على مادة آدم عليه السلام؛ وهي الطين»[6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢١٠)، ح٢١٤٢٩، مسند «أبي ذر الغفاري».
(٢) أي: حتى آداب قضاء الحاجة؛ كما هو واضحٌ من تفسير سلمان ﷺ.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الاستطابة.
(٤) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق، (٦/٣٠٠).
(٥) هو محمَّد بن عبدالكريم، أحد أئمة الأشعريَّة. له تصانيف، منها: الملل والنحل، ونهاية الإقدام. توفي سنة ٥٤٩هـ. [الذهبي، السير، مصدر سابق، (٢/٢٨٦ ـ ٢٨٨)].
(٦) الشهرستاني، ١٩٧٧م، ص ١٤.

فما أخبرنا عنه الله ﷻ في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، آمَنَّا به وصدَّقْنَاهُ، وما سَكَتَ عنه من أمر الغيب ـ ويدخل في ذلك ذات الله سبحانه وتعالى، وأسماؤه، وصفاتُه ـ، لم نشغل عقولنا في البحث عن كيفيَّته، أو تكلُّفِ ما لا يُقدَرُ عليه؛ لأنَّ عقول البشر لا تستقلّ بمعرفة أصول الدينِ على سبيل التفصيلِ، لعَجْزِها وقصورِها، ولو كانت تستقلُّ بمعرفة ذلك، لما أرسلَ الله الرُّسلَ، وأنزل الكتبَ.

يقول السفاريني[1] (ت ١١٨٨هـ): «لو كانت العقولُ مستقلَّةً بمعرفة الحقِّ وأحكامِهِ، لكانت الحجَّةُ قائمةً على النَّاس قبل بَعْثِ الرّسل، وإنزال الكتب. واللازم باطلٌ بالنصِّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، فكذا الملزوم»[2].

لكن ليس النفي على إطلاقِهِ، بل نقولُ: لا تستقلُّ العقولُ على سبيلِ التفصيلِ. أمَّا على سبيل الإجمالِ؛ فإنَّ الله سبحانه وتعالى فَطَرَ الخلقَ على مِلَّةِ التوحيدِ:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ): «.. الله سبحانه فوق مخلوقاته، عالٍ عليها؛ قد فَطَرَ الله على ذلك العجائز، والأعراب، والصبيان في الكُتَّاب، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى... والرُّسُل بُعِثُوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتحويلِ الفطرة وتغييرها»[3].

والله سبحانه وتعالى قد وَهَبَ عباده عقولاً يهتدون بها إلى الحقِّ.

---

(١) هو محمَّد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبليّ. شيخٌ، إمامٌ، صاحب التآليف الكثيرة. ولد بقرية «سفارين» من قرى «نابلس» سنة ١١١٤هـ، وتوفي سنة ١١٨٨هـ. [الزركلي، مرجع سابق، (٦/٢٤٠)].

(٢) السفاريني، ١٤٠٥هـ، (١/١٠٥).

(٣) ابن تيمية، الجواب الفاصل، مجلة البحوث الإسلاميَّة، ع٢٩، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٥.

والوصول إلى الحقِّ يُمكن من طريقين؛ طريق الوحي، وطريق التجربة التي تجمع بين الحسِّ والعقل.

وقد أشار القرآن الكريم في غيرما آية إلى الطريقة الثانية، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

«فبالسير في الأرض تتكوَّنُ الصور الحسيَّة لآثار السابقين؛ من خراب الديار، ودروس العمَّار، بعد أن كانوا أكثر قوَّةً وجمعاً. وهذا هو عطاءُ الحسِّ، ثمَّ تأتي مهمَّة العقل، وذلك بالنظر في هذا العطاء الحسِّي؛ فيفحصه مرتِّباً له، ورابطاً لأجزائه بعضها ببعض؛ يقيس الغائب على الشاهد، ويُلحق الشيءَ بنظيره، والفرعَ بأصله، والملزوم بلازمه، إلى غير ذلك من الأعمال العقليَّة، ثمَّ يخرج بالنتيجة؛ وهي صلاح الدار الآخرة، وتقديمها على الدار الفانية»(١).

وهكذا تبدأ معطيات الحسِّ تردُ على العقل عبر رسله ـ السمع، والبصر، ونحوهما ـ، ويبدأ العقل بأداء دوره في التفكُّر فيها، إلى أن ينتهي إلى نتيجة تهديه إلى الحقِّ.

وبهذا يتَّضح أنَّ الشريعة الإسلامية لم تُهمِلِ العقلَ، ولم تلغِ دورَه، ولم تأمرْ أتباعَها بتعطيلِهِ وعدمِ تشغيلِهِ، كما فعلت باقي الديانات المحرَّفة، التي كانت تأمرُ أتباعَها بالتسليمِ الأعمى.

فالحمدُ لله الذي هدانا لهذا الدين، وجعَلَنا من أمَّة محمَّدٍ سيِّد الأنبياء والمرسلين.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

---

(١) ابن حسن، مرجع سابق، (١/١٦٥).

فهرس المصادر والمراجع

- الآمدي، عليّ بن أبي علي بن محمد، (١٣٨٨هـ)، **الإحكام في أصول الأحكام**، (د.ن.).
- الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م)، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، بيروت: المكتب الإسلاميّ.
- الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)، **مسائل الإمام أحمد**، رواية ابنه عبدالله، بيروت: المكتب الإسلاميّ.
- الأصفهاني، عبدالله بن محمد، (١٤٠٨هـ)، **الذريعة**، القاهرة: مكتبة التوعية الإسلاميّة.
- الألباني، محمد ناصر الدين، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)، **صحيح سنن الترمذي**، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- الألباني، محمد ناصر الدين، (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م)، **صحيح سنن أبي داود**، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- الألباني، محمد ناصر الدين، (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)، **صحيح سنن ابن ماجه**، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- امرؤ القيس، (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م)، **ديوان امرىء القيس**، بيروت: دار الكتب العلميّة.
- أنيس، إبراهيم أنيس، ورفاقه، (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م)، **المعجم الوسيط**، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (١٤٠٠هـ)، **الجامع الصحيح** «صحيح البخاري»، القاهرة: المطبعة السلفيّة.
- البغدادي، الخطيب، (د.ت.)، **تاريخ بغداد**، بيروت: دار الكتاب العربي.
- البيهقي، أحمد بن الحسين، (١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م)، **كتاب الأسماء والصفات**، جدة: مكتبة السوادي.

- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، **الجامع الصحيح**، المعروف بـ «سنن الترمذي»، القاهرة: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، **بغية المرتاد في الردّ على المتفلسفة والقرامطة والباطنية**، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م)، **تفسير سورة الإخلاص**، القاهرة: دار الريان للتراث.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (١٤١٠هـ)، **الجواب الفاصل بتمييز الحقّ من الباطل**، الرياض: ضمن مجلة البحوث الإسلاميَّة، ع٢٩، ص ٢٧٩ -٣١٣.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، **درء تعارض العقل والنقل**، الرياض: جامعة الإمام محمَّد بن سعود.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، **الرسالة التدمريَّة**، الرياض: شركة العبيكان.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م)، **شرح حديث النزول**، الرياض: دار العاصمة.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (١٤٠٤هـ)، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة.
- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، **النبوَّات**، بيروت: دار الكتب العلميَّة.
- الجوهري، إسماعيل بن حمَّاد، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، **الصحاح**، (د.ن.).
- ابن حجر، أحمد بن علي، (١٤٠٦هـ)، **تقريب التهذيب**، حلب: دار الرشيد.
- الحربي، إبراهيم بن إسحاق، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، **غريب الحديث**، جدة: دار المدني.
- ابن حسن، عثمان بن علي، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، **منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنَّة والجماعة**، الرياض: مكتبة الرشد.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد، (د.ت)، **وفيات الأعيان**، بيروت: مطبعة الغريب.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، (١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م)، **سنن أبي داود**، بيروت: دار الكتب العلميَّة.

- ابن أبي الدنيا، عبدالله بن محمد بن عبيد، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م)، **كتاب العقل وفضله**، الرياض: دار الراية.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م)، **سير أعلام النبلاء**، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان، (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م)، **العلو للعليّ الغفّار**، بيروت: دار الفكر.
- الرازي، محمد بن أبي بكر، (١٩٧٣م)، **مختار الصحاح**، القاهرة: دار المعارف.
- الزبيدي، محمد مرتضى، (١٣٠٦هـ)، **تاج العروس وجواهر القاموس**، بيروت: مكتبة الحياة. مصور عن ط١ بمطبعة الخيرية الجمالية بالقاهرة.
- الزركلي، خير الدين، (١٩٨٤م)، **الأعلام**، بيروت: دار العلم للملايين.
- الزمخشري، محمود بن عمر، (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م)، **أساس البلاغة**، بيروت: دار الفكر.
- السفاريني، محمد بن أحمد، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، **لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثريّة**، الرياض: مكتبة أسامة.
- السلمي، أبو عبدالرحمن، (١٣٨٠هـ)، **طبقات الصوفيّة**، القاهرة: مطابع الشعب.
- السيوطي، جلال الدين، (١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م)، **صون المنطق والكلام عن فنّ المنطق والكلام**، بيروت: دار الكتب العلميّة.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، **الاعتصام**، بيروت: دار المعرفة.
- الشهرستاني، محمد عبدالكريم، (١٩٧٧م)، **الملل والنحل**، بيروت: دار الفكر.
- الشوكاني، محمد بن علي، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م)، **فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير**، القاهرة: مكتبةِ ومطبعة البابي الحلبي.
- الطبري، محمد بن جرير، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، المسمّى «تفسير الطبري»، بيروت: دار الكتب العلميّة.
- الطوفيّ، سليمان بن عبدالقوي، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م)، **شرح مختصر الروضة**، الرياض: توزيع وزارة الشؤون الإسلاميّة والأوقاف والدعوة والإرشاد.
- ابن عبدالبر، يوسف بن عبدالله، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م)، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، بيروت: دار الفكر.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م)، **العقد الفريد**، بيروت: دار الكتب العلميّة.
- ابن عقيل، علي بن عقيل، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، **الواضح في أصول الفقه**، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الغزالي، محمد بن محمد، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، **شرف العقل وماهيته**، بيروت: دار الكتب العلميّة.
- ابن فارس، أحمد بن فارس، (١٣٩٠هـ)، **اللفيف في معرفة كلّ معنى لطيف**، القاهرة: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي.
- ابن فارس، أحمد بن فارس، (١٣٨٩هـ)، **معجم مقاييس اللغة**، القاهرة: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، بيروت: المكتبة العلميّة.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، **القاموس المحيط**، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن قدامة المقدسي، عبدالله بن أحمد، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م)، **روضة الناظر وجنّة المناظر**، مع شرحها نزهة الخاطر العاطر، الرياض: مكتبة المعارف.
- ابن قدامة المقدسي، عبدالله بن أحمد، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، **المغني**، القاهرة: دار هجر.
- الكلوذاني، محفوظ بن أحمد، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م)، **التمهيد في أصول الفقه**، مكة المكرمة: جامعة أم القرى «مركز البحث العلمي».
- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، **أدب الدنيا والدين**، مكة المكرمة: دار الباز للنشر والتوزيع.
- المحاسبي، الحارث بن أسد، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م)، **شرف العقل وماهيته**، بيروت: دار الكتب العلميّة.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م)، **صحيح مسلم**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

- النابغة الذبياني، زياد بن معاوية، (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م)، **ديوان النابغة**، بيروت: دار الكتب العلميَّة.
- النحلاوي، عبدالرحمن، (١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م)، **أصول التربية الإسلاميَّة وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع**، دمشق: دار الفكر.
- الهيتمي، ابن حجر، (د.ت.)، **الزواجر عن اقتراف الكبائر**، القاهرة: مكتبة ومطبعة البابي الحلبي.
- ابن أبي يعلى الحنبلي، (د.ت.)، **طبقات الحنابلة**، بيروت: دار المعرفة.